اللغة والهويَّة والانتماء

Language، identity and Membership

د.وليد محمد السراقبي
كلية الآداب ، حماة، سورية

Dr. Waleed Mohammed Al-Sarakby
Faculty of Arts، Hama، Syria

ملخص البحث

يُراد من هذا البحث الكشف الموضوعي عن التواشج القائم بين كل من اللغة، والهوية، والانتماء، وتأكيد أن الانتماء هو انتماء لغوي في المقام الأول، وأن افتقاد الوعي بأهمية هذا الترابط بين هذه العناصر الثلاثة يعني خسارة الهوية؛ ذلك أن الحقائق تثبت أن اللغة من الروابط المهمة بين حاضر أبناء الأمة وماضيهم ومستقبلهم.

يُضاف إلى ذلك السعي إلى الكشف عن ملامح الواقع اللغوي وتوصيفه توصيفا موضوعياً بعيداً عن التباكي على رسومه، ومن ثم سعى البحث – وفق الطاقة والجهد-إلى تلمس سبل تجاوز هذا الواقع وتحسينه.

Abstract

This research investigates the relationship between language ، identity and membership. We want to emphasize that membership means language membership in the first place. Lack of awareness of the importance of this interdependence across these three elements means there is a loss of identity. The facts prove that language makes the important connection between the present، past and future of nations.

In addition، the research intends to reveal the reality of linguistic features and describe it objectively away from lamenting the patterns، but to touch upon the ways that can help in overcoming this situation and improve it.

ينعقد هذا العنوان من ثلاثة ألفاظ تربط بينها علاقة العطف بحرف العطف ((الواو)) ، ولعلها بعطف واحد منها على الآخر تفيدُ شدَّة التماهي بين ثلاثة المصطلحات المذكورة ، وأنها تؤول إلى التطابق ، على نحو يمكن القول : لا انتماء بلا هوية ، ولا هوية بلا لغة . فلو بدأنا من آخر العنوان لوجدنا أن الانتماء ، مصدر مأخوذ من (نما ، ينمي ، وينمو) ، وكلُّها تدلُّ في اللغة على الارتفاع والزيادة ، والانتماء : الانتساب [١] ، والانتساب مسلك يدلُّ على العلو والارتفاع ، لأنّه يعود بنسبه إلى الأصل الذي تحدَّر منه . أما الهويَّة فمصدر صناعي يدلُّ على جوهر الشيء ، وماهيَّته مع التشخُّص ، والهوّية نسبة إلى (هو)أو (الهو)، ويراد به عند الفلاسفة الغيب أو الحقيقة المطلقة أو الله [٢].وقد أخذيدلّ على ((ذلك الجوهر الثابت في الشيء الذي به يتعيَّن ذلك الشيء، ويتحدَّد وبه يتمايز عن[كذا] غيره ويختلف)) [٣].

وأما اللغة فهي الصوت أو اللفظ ؛ لأن الأصل فيها التصويت ، ثمَّ أصبحت تطلق على معانٍ أخرى فقيل : لغة الإشارة ، ولغة الأرقام ، ولغة الجسد .قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ولمـــــــا التقينا يا بثينـــــةُ أومضـــتْ
مخافةَ عينِ الكاشحِ المتلوِّمِ
أشارتْ بطرف العين خيفةَ أهلهـا
إشارةَ محزونٍ ولـــــــــــم تتكلَّمِ
فأيقنتُ أنَّ الطرفَ قد قال: مرحباً
وأهلاً وسهلاً بالحبيب المُتيَّمِ

واللغة اصطلاحاً :»أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» . فهي ((منظومة مؤلفة من أصوات منطوقة أو مكتوبة مترابطة وفقاً لقواعد بنائية معيّنة في سبيل تحقيق الاتصال الفكري والعاطفي بين الناس)) [٤] .

وتشيرُ أدبياتُ الأمم قاطبة قديمها وحديثها إلى أنَّ اللغة مرادف للوجود من غير اتفاق في الجذر اللغوي ، وإلى أنها هي هوية الكائن الحي ، بها يُعرَفُ موقعُهُ ، وبها يُرَى حقيقةً أو مجازاً ، وبها يكشف المرء ما يجول في ذهنه من فكر ، وما يضطرم في قلبه من عواطف .

وربط عبد القاهر الجرجاني بين الكلام والتَّعبير عما في النفس ، وذهب إلى أن الكلام هو الذي يفصح عما في القلوب فقال : ((لولا الكلام لبقيت القلوب مقفلةً على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها)) .

ونظر هيدغر إلى أن «اللغة هي منزل الوجود ، وفي بيتها يسكن الإنسان)) ،ولذا يحسن بالإنسان قبل أن يبدأ بالتفكير الاعتراف((بأنه منغمس في اللغة، وإن عليه أن يصغي إلى ما تقوله الكلمات». [٥]

بل وصل الأمر بهيدغر إلى عدم عدِّ الإنسان موجوداً ما لم توجد اللغة ، فإذا كان الإنسان حامل اللغة ، فلا يعني هذا أنه هو الذي يشكل اللغة ، بل إن اللغة هي التي تشكِل الإنسان ، وتسيطر عليه ، وهي سيِّدة أمره ، ولذلك يدعو إلى البحث في المنجز اللغوي لا في المنجِز – بكسر الجيم - ، لأن اللغة هي التي تتكلم عمّا في نفس صاحبها ، فهي التي تتكلم وفق مشيئتها الخاصَّة ، والإنسان حينما يتصرَّف يعدُّ

نفسه سيّد لغته ، في حين أن الواقع هو أن اللغة هي سيِّدة أمره ، تأخذ بيده إلى هنا وهناك ؛ ولذا وجب إلقاء الضوء على اللغة التي يستعملها المتكلم لا على المتكلم نفسه .

ولا يعني ما قدّمناه أنَّ اللغة تختزل إلى فيزياء ومصوّتة ، ولا أن تقوم بدراسة سلسلة الأصوات عندما تريد دراسة اللغة ، ودراسة الاهتزازات التي تنجم عن حبال الصوت ، ذلك أن هذه المنجزات الفيزيائية أكثر ((من مجرَّد أصوات ليس لأنها تحمل دلالات مثالية ، ولكنها لأنها تحملُ إيقاعاً وتنتج نغماً)) [٦].

وهذا يفضي بنا إلى تأكيد أن اللغة ذاتُ طبيعةٍ إيقاعيةٍ تؤثر في المتلقِّي ، وليست وسيلة تواصل بين الكائن وأفراد مجتمعه فحسبُ ، ولذلك يصرُّ – هيدغر – على ضرورة الاهتمام باللغة كما هي ، وليس بحسب بنية مثاليَّة ، بل بحسب طبيعتها ، ورأى أن : ((التّدمير الوحيد الذي يصيب اللغةَ هو اختزالُها تِقْنياً إلى مجرد وسيلة للتواصل)) [٧] .

وفي هذا ما فيه من الإشارة إلى أهمية اللغة ومكانتها في التشكيل الفني ، فاللغة حجاب يشفُّ عن الفتنة ، لا شاشٌ معقم [٨] ، ((فالبنيات الشكلية التي هي الأدب بنيات لغوية))[٩] ، بل إن ((الدراسات اللغوية لا تصبح دراسات أدبية إلا حين تفيد ، أي حين تهدف إلى تقصي الآثار الجميلة للغة)) [١٠] .

وما قدّمناه ليس خاصّاً بلغتنا العربية ، ولكنْ هذهِ مكانةُ اللغة عامة بالنسبة إلى حامليها فهي مرآة تفكيرهم ، فلِكل لغة تراكيب لغوية تعكس طريقةَ التّفكير ، ولها أسلوبٌ مشترك بين مَنْ يتكلمون لغة ما ، ((وهذا يعني أنَّ أبنية الوقائع في الوجود القومي تتعيَّن من خلال الأبنية اللغوية)) [١١] .

ولكن لا يعني ذلك أنْ ليسَ للغتنا خصوصية على مدى التاريخ تجعل منها أُسَّ الهوية العربية ؛ ذلك أنها الحامل الذي حمل نصَّها المقدَّس ، فأكسبها بعداً مقدساً ، فهي ليست ذات بعد عرقي إثْني ، إذ ((ليست العربية بأبٍ منكم ولا بأم ، ولكن العربية هي اللسان ، فمن تكلّم بالعربية فهو عربي)) .

((والعربية هي العروبة والانتماء إلى العرب ، وما العربية إلا انتماء لغوي في المقام الأوَّل ، وإنّ خسارة اللغة لا تعني افتقاد عنصرِ تواصلٍ وتعبير ، بل تعني افتقاد الانتماء وافتقاد الهوية)) [١٢] .

وقد كثرت النماذج والأمثلة على صحة مقولة ((الهوية العربية هي هوية اللغة والثقافة)) ، ولنا في المفسِّر المعتزلي جار الله الزمخشري أنصع مثال ، فقد نسي انتماءه العرقيَّ ، وجاهر بانتمائه إلى العربية لغة وثقافة وتعصَّب لذلك من غير التواء أو مواربة فقال في مقدّمة أحد كتبه : ((الله أحمد على ما جعلني من علماء العربية ، وجعلني على الغضب للعرب والعصبيَّة)) [١٣] .

وما قاله الزمخشري مجاهراً متعصِّباً يؤكد أن اللغة العربية تمثِّل دور الحاضن للهوية والمعبِّرِ عنها والحافظ لتراثها ، وهي الإطارُ الحضاريُّ المشترك المركز على قيم روحية أخلاقية [١٤] .

فلغتنا هي «التي تربطنا عبر الزمان بتاريخ أمتنا الماضي ، وتربطنا على امتداد المكان بالناطقين بها ... إنها تملأ العربيَّ إحساساً وانتماءً إلى كل من تكلم

بها ماضياً ، وكل من يتكلَّم بها حاضراً ، وكل من سيتكلم بها مستقبلاً،وما الشعور القومي إلا امتلاءُ الفرد بروح أمته، والعربية روح من روح الأمة» [١٥].

إنَّ الوقوف على معالم واقع العرب اللغوي وتشخيصَ هذا الواقع تشخيصاً بعيداً عن التَّهويل يكشف عن وعي بأهمية المسألة اللغوية أو قل المعضلة اللغوية، ذلك أنَّ تشخيصَ الواقع العام لا يكون مجدياً إذا لم يشخّص الأجزاء ، فالجسم الذي يشكو وهناً عاماً لا تعود إليه صحّته إذا اقتصر على علاج جانب من دون جانب آخر ، فالقضايا الكبرى لا تشخص إلا انطلاقاً من القضايا الجزئية ، وهذا يفضي - من بَعْدُ - إلى وعي بالقضية كلياً .

وتأتي أهمية الوعي اللغوي من جوانب مختلفة ، فهو الذي يدفع إلى إدراك موقعيَّة اللغة وأهميتها وعلاقتِها بالمستويين التعبيري والفكري ، ويقدِّم كشفاً بما يعيق اللغة ويكبح جماح استمرارها ، ويدفع بتكوين رؤية لما ستكون عليه هذه اللغةُ ، ويفصحُ عن سبل الوقوفِ أمام ما يواجهها من تحديات ، وما الحلول الناجمة لذلك [١٦] . فالوعي اللغوي السليم هو أولى خطوات الوعي السياسي والقومي لأيَّة أمة [١٧] ؛ لأن المشهد السياسي عامّة يتألف من حبات فسيفساء تتعاضد فيما بينها لتشكيل اللوحة كاملة[١٨] ، فإذا سقطت حبَّة فسيفساء واحدة غدت اللوحة شوهاء ، وسقطت الوحدة التي كانت توحي بها . «وإذا أمعنا النَّظر في واقع لغتنا العربية نصادف واقعاً لغويَّاً متهالكاً ، آيلاً إلى انطفاء جذوة ذاته ، منسرباً في سراديب الضياع اللغوي في بحر لجيٍّ يسمَّى ثقافة العَوْلمة ، وعولمة الثقافة . وهذا الضياع مفضٍ إلى فقدان الوعي، وهذا الأخير مُسْلم إلى الانتحار اللغوي» .

والمقصود بالانتحار ههنا هو انتحار الأمة حاملة هذه اللغة لا انتحار اللغة نفسها'. والانتحار الذي نقصده ليسَ انتحاراً عن وعي وتخطيط له،ولكنه انتحار يتسم بأنه انتحارٌ لغوي((بطيء رحيمٌ)) [١٩] ، انتحار تسايره الغفلة وتماشيه ، ويستظل بظل قانون الجهد الأقل [٢٠] ، وهو ليس انتحاراً يضطلع به فرد بعينه ،إنه انتحار» جماعي ، فهو ليس موجعاً للفرد لأن المدَّ العام يدفعه في اتجاه الانسياب الجذاب « [٢١] .

وقد ألف العرب هذا الواقع اللغوي المَهين ، «وسايروا هذا التّيهان اللغويّ - قاصدين أو غافلين - واستمرؤوه فتطبَّعوا به ، وقبلوه ، ورضوا به ، حتى قرَّ في أوهامهم أنَّ هذا هو المسلك الطبيعي ، وأيُّ سعي إلى تغييره وتجاوزه دخول في زوبعة مغامرةٍ وخيمةِ العواقبِ ،ليس وراءها إلا الفشل قبل أن يبتدروها)) [٢٢] .

ونتيجةً منطقيةً لهذه الغفلة أو هذا التغافل عجزوا عن وعي صحيح للمسألة اللغوية أو قل للمأساة اللغوية ، وظنوا أنْ لا علاقة بين أمنهم القومي واللغة ، وأنَّ ما يجري من تشخيص للواقع اللغوي المهين ليس إلاّ تضخيماً للواقع وتهويلاً له . وفاتهم أيضاً أنّ الأمن اللغويَّ يفوق الأمن الغذائي والمائي أهميَّة ، ذلك أنّ التفكير سبيل إدراك المرء وجوده ، واللغة مطيَّة هذا التفكير ووسيلته ، وهي كذلك حدودُ العالم الحميم ومعالمه وتضاريسه ، فمن خلال عيون اللغة يطلُّ على أرجاء الكون الواسع ، وتربط الماضي

بالحاضر ، وينطلق إلى المستقبل ، وبها يتحقق التواصل الفكري والعاطفي بين أفراد المجتمع ، إذ لا وجود لأي تجمّع بشري من غير لغة.

إنَّ معضلة اللغة العربية ومأزقها تحوطهما جملة من الأسباب ، ومنها :

١- غياب السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي اللذين يجهدان في تطوير اللغة وفق خصائصها الذاتية والموضوعية وربطها بالتقانات الحديثة في مستويي تعليمِها والإبداع بها .

٢- العولمة [٢٣] .

٣- الرُّهاب اللغوي: وهذا ناتج عن ربط في عقلية الغرب وذهنية واضعي أصول فكره وسياسته بين العروبة والإسلام ،وبين العربية وحامليها، إذ الإسلام في نظر أكثرهم معادل للإرهاب، ولما كانت العروبة وأهل العربية أصلاً هم الحاملين الأساسيين لهذا الدين فالعروبة والإسلام متطابقان، وهذا يعني –لديهم – أن من يتكلم العربية إرهابي، فالعرب إرهابيون، لأن العربية لغة الإسلام ، ولا يُقبل الركن التعبُّدي الأول فيه، وهو الصلاة، إلا بالعربية، فالعربية لغة إرهابية .فتهمة الإرهاب الجاهزة التي روج لها الغرب»أمعنت في الإلهاء إلى حد الإضلال، فأشاعت أن الإسلام هو الإرهاب، ثم روَّجت أن الإسلام هو العرب وان العرب هم الإسلام» وتكون النتيجة المتمخضة عن ذلك» أن اللغة التي جاء بها الإسلام وبها نزل نصه المقدَّس تحمل في كيانها بذور العنف» ؛ أي أنه لغة تحمل بذور العدوانية وتؤسس للإقصاء، تشيع الكراهية ، وتحض على التباغض والكراهية.

٤- التلوثُّ اللغوي : ومصادرُه كثيرةٌ ، منها المسموعُ ومنها المقروء .وقد كانت لنا دراسة سابقة وقفنا فيها عند أثر وسائل الإعلام والإعلان في تشويه الواقع اللغوي[٢٤].ولم تكن قد ظهرت بين ظهرانَي مجتمعنا وسائل التواصل الاجتماعي ، من ((فيسبوك))، و ((تويتر))، و ((فايبر)) ، و ((واتس)) . فقد زادتْ هذه الوسائل الجديدة ضِغثاً على إبَّالة [٢٥] ، فعلى أنَّها وسائل رفاه توفِّرها التّقانة الحديثة ، أدّتْ إلى تعاظم ((حجم التلوُّث اللغوي المحيط بنا في التداول والمحاورة ، وفي الإبلاغ والتّواصل ، وفي البث والتوجيه ليلاً ونهاراً نحن مغمورون وسط محيطٍ عارمٍ من التُّلوث اللغوي ... ليس بوسعك أن تنجز أيَّ فعلٍ دون أنْ تحسَّ بتلوّثٍ لغوي يناوشك رذاذه *-لسعدُهَ إذا تخدّر منك الوعي غافلاً أو متغافلاً ، وتشقى لو أصررت على الانتباه ، وتصاب باليأس والإحباط إن كنت من الذين يتمرَّد عليهم وعيهم فيأبى أن ينامَ ولو حقنوه بالأقراص تلوَ الأقراص)) [٢٦]. وهذا يمكننا من الوصول إلى نتيجة مفادها أن حجم التلوّث اللغوي يتناسب طرداً مع ما تُحقِّقه التَّقانة من تقدّم . واللغة تعدُّ من أدقّ الظواهر وأكثرها تأثّراً ، فما أسرع ما يدخل الوهنُ إلى جسمها ! ((فكل نبأةٍ وهمسةٍ في حياة الجماعة التي تتكلم لغةً تتركُ أثرها في هذه اللغة المتكلّمة وتغيّر من حالها)) [٢٧] .

والناظر في خصائص اللغة الناجمة عن التواصل من خلال المواقع الافتراضية يقف على لغة أقلُّ ما يقال

فيها : إنها لغة هجين ، مؤلّفة من أخلاط وأمشاج ، ربّما يشتق بعضهم اسماً مشقاً من اللغة الإنكليزية ، فيكرّسون لها وجوداً من خلال التّسمية [٢٨] ، فيقولون : لغة الفيسبوك ، والواتس ، .... إنها لغةٌ بلا هويَّة ولا انتماء ولا تلتزم بالحدِّ الأدنى من الحدِّ الأدنى من سُلَّم الصواب اللغوي ، أو الانتماء اللغوي . فهي أمشاج من اللغة العامية والأجنبية فبدلاً من أن يقول لك : نعم ، أو أجل ، كتب لك ((أوكي)) والشرّ يكون أهون لو أنه كتب (ok) بصيغتها الأصلية المختصرة .

وهذه اللغة الهجين مظهر صارخ من مظاهر الانتحار اللغوي ، بل هي من أدلِّ القرائن على أننا على شفا جرف هارٍ منْ فاجعة حضارية قاصمة . فإذا كانت اللغة - في الأصل - عاملاً موحِّداً للمجتمع الناطق بها ، تجعل منه كلاًّ متراصاً خاضعاً لقوانين ، إنها الرابطة الوحيدة بين عالم الأجسام وعالم الأذهان))[٢٩] .. فإنَّ هذه اللغة التي جدَّت بفعل مواقع التواصل الافتراضي ، تفصم عُرَى المجتمع عروة عروة ، وتقوِّض أركان بنيانه القومي رُكناً رَكْناً . ومن حسن حظ العرب - وقد زُجُّوا في مجتمع المعرفة - أنّهم أصحابُ لغة لها قابليَّةٌ تستطيع بموجبها احتضانَ هذه الثورة المعرفية العارمة إذا كان العرب على مستوى الوعي بمسألة الأمن اللغوي ، وعرفوا شدَّة التلاحم بين هويتهم الحضارية وأمنهم اللغوي ، وأدركوا أن ((ليست العلاقةُ بين اللغة والهويَّة مبحثاً ثقافياً أنثروبولوجياً ، وإنما هي مبحث سياسي استراتيجي)) [٣٠] فأيما شعب ، ((فقد استخدام لغته الأمّ فإن ذلك سيؤدي إلى طمس ذاتيته الثقافية وفقدانه هويته)) [٣١] . إنّ معرفة الإنسان بالعالم من حوله من جهة ، واكتمال هويَّته من جهة أخرى ، لا وجودَ لهما خارج اللغة ، ولا يتحقَّق تشخُّصُهما بغير بنيةٍ لغويةٍ ، فهي رؤوسُ مثلَّثٍ لا يمكن تركُ واحدٍ من غير التصاقٍ بالأخرى ، فالمعرفة الإنسانية لا تتم إلا عبر توسُّط اللغة بين الكائن الحي الناطق وما يريد معرفته ، وإنَّ أوَّل انفتاح للكائن للعالم والانطلاق فيه لا يكون عبر اللغة ، وهذا ما يؤكده هانس غادامار في قوله : ((لغويّة وجودنا في العالم تعمُّ في نهاية الأمر كل ميدان التجربة ...)) [٣٢] . ((ولا وجود لمجتمع المعرفة الذي يسعى إلى التنمية ، ويجعل الاقتصاد خادماً للمعرفة ، ومستثمراً لها في الوقت ، خارج دائرة اللغة القومية . وهذا يؤكد لنا أنَّ إتقان اللغة القومية سمة من سمات اكتمال الشخصية في كل الدول المتقدِّمة)) [٣٣] ، وأن : ((توطين العلم وما ينجم عنه من تقنيات يستحيل قطعاً خارج اللغة التي بها نكون ، ومعها نتماهى ، والتي هي في الوعي الفردي كما هي في الوعي الجمعي الرمز الأعلى المعبر عن الهويّة)) [٣٤] . وإذا أردنا تأكيد ذلك بأمثلة واقعية مما حوَّلنا من بلاد العالم لا نقف على بلد واحدٍ حقَّق ما وصل إليه من تقدّم علمي بغير لغته الوطنية ، فهذه هي اليابان ، والصين ، والبرازيل ، وفنلندا ، وكوريا ،.... حتى إنّ إسرائيل لم تُقِمْ كيانها إلا على لغتها القومية ، اللغة العبرية ، فقد هجرَ مَنْ هاجر إلى إسرائيل لغته الوطنيَّة، كالألمانية

، والنمساوية ، والروسية وأحيوا لغة ((أخرى ماتت عملياً منذ ألفي سنة ... وشتّان بين اللغتين العربية والعبرية في مسيرة الحضارة الإنسانية)) [٣٥] .

وكوريا مثال واضح على ذلك أيضاً ، فقد تمكَّنت من تحقيق طفرة علمية وتقانية مكنتها من الحصول على موقع منافس في موكب الدول المتقدِّمة بلغتها الوطنية ، وتصدّرت التقانة والخبرة ما يساوي أو يفوق ما تصدره أغنى بلداننا بموارد الطاقة)) [٣٦].

وقد كانت في ستينيات القرن الماضي أفقر دولة من آسيا فتحوَّلت إلى أغنى تاسعِ دولةٍ ، وهي في المرتبة الثامنة والعشرين في تقرير التنمية البشرية ، وهي تستورد بمبلغ (٢٦٥ مليار / بليون) المعادن ومواد الطاقة ، وتحوِّلها إلى منتجات صناعية وتبيعها بقيمة (٢٨٨ / مليار بليون) دولار ، وهذا ما رفع دخل الفرد فيها إلى ٢٠٠٠٠ دولار سنويّاً .

وفي فيتنام أصدر ((هوشي منه)) قراراً حاسماً بـ ((فَتْنَمة)) التعليم كافة ، مع العلم أنَّ هيمنة اللغة الفرنسية دام ثمانين سنة ، ولمَّا جاءه أساتذة كلية الطب يعبّرون عن استحالة ذلك ، ملتمسين منه العدول عن قراره أو الترَيُّث ، فسمح لهم بالتدريس باللغة الفرنسية للسنة التي هم فيها ، على أن يعملوا على تعلم اللغة الفيتنامية خلال تسعة أشهر ، وأن تكون الامتحانات في المستويات كلها في نهاية العام باللغة الفيتنامية ، وأن تكون الدراسة في العام المقبل باللغة الوطنية [٣٧].

وقال هوشي منه : ((لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى ثقافتنا القومية ولغتنا الأم ، فحافظوا على صفاء لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم، حذار أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تستعملوا فيه كلمة فيتنامية .

إذاً ، لا يعني الدخول في مجتمع المعرفة والأخذ بشروط التنمية المتجدِّدة التخليِّ عن اللغة القوميَّة ، بل إن ما قدّمناه ، يؤكد على نحو لا يدع مجالاً للشك أن ((لا سبيل إلى الأخذ بأسباب التنمية عن طريق المعرفة إلا بالاعتماد على لغة قومية تجمع ولا تفرِّق ، تؤصِّل ولا تستأصل ، ... فلا مجال لأي مجموعة بشرية أن تتشبَّع روح العصر ، وتتناهى في استسقاء مناهلِ التفكير العلمي ... إلا بمنظومةٍ أدائية في مجالِ التعبير تسكبُ فيها عُصارةَ الحياة ، وتصنع منها مراجعَها في السّلوك ومعاييرَها في القيم)) [٣٨] .

وهذا يؤكد من جهة أخرى التناسب الطّردي بين النهوض المعرفي والارتقاء اللغوي ، وهو ما كان الأمل معقوداً عليه في بدء حركة التحرُّر العربي من الاستعمار ، إذِ السَّذاجة اللغوية هي قرين السذاجة الحضارية ولذا توجهَّت أنظار القائمين على الأمور آنذاك نحو التنقية المذهبية والتنقية اللغوية ، ودام ذلك الارتقاء سنواتٍ ، ثم أخذ السُّلَّم اللغوي بالانحدار تحت سيطرة قانون التناسب العكسي [٣٩] ، ولنا من النشاط الترجمي في عصره المزدهر خيرُ دليل [٤٠] ، فقد بلغت الترجمة في زمن المأمون آخر مراحل نضجها ، فقد بذل ((جهد دائب لجعل المادة الضرورية للبحث الفلسفي والعلمي في متناول الطالب الذي يتكلم العربية ... وظلت تلك النهضة مستمرة حتَّى نقلت أهم كتب القدماء إلى العربية)) [٤١] .

إنَّ معضلة اللغة العربية ليست خاصَّة بما هو خارج

أقسام اللغة العربية ، كالكليات العلميَّة ، ولكنَّها مترسِّخة في عُقْر دارها التي يفترض منطقياً أنها القلعة التي تنافح عن هذه اللغة ، ذلك أن الطالب المتخصص في اللغة العربية يشكِّل عبقاً على هذه اللغة ، فلا هو يحبُّها ولا هو اختارها حباً فيها ، وهذا التعميم لا مبالغة فيه ، ولا يشذُّ عنه إلاّ أقلّ القليل .

إنَّ طالب قسم اللغة العربية دخل القسم وهو لا يحمل من الزاد المعرفي إلاّ أقلَّه ، ودرج على تلقي العلم من خلال وريقات لا تتجاوز الخمسين ورقة في أغلب المقرَّرات ، ثم هو يرميها بعد الانتهاء منها . أما قدرته على الكتابة فهي لا توحي بأنَّ صاحبها يدرس في هذا القسم المتخصص ، وعجزه يظهر في صور عدَّة في مستوى التركيب وفي مستوى الإفراد . أما في المقرَّرات التي هي في صُلْب اختصاصه ، وأعني بها ما يتعلَّق منها بعلوم اللغة ، وأخصُّ منها النحو ، فأنت أمام انتحار حقيقي للغة.

فإذا طلبت إلى طالب في قسم اللغة العربية أن يحدِّثك بلغة عربية شبه سليمة فقد كلَّفته فوق طَوْقه ، فتراه يرطن بكلمة عربية فيميل لسانه إلى العاميّة الدارجة ، والطلبة في ذلك كإبلٍ مئةٍ لا تكادُ تجدُ فيهم راحلة . ثمّ إنّك بعد اللتيَّا والتي مشدود إلى نسبة مقرَّرةٍ عليك أن تصل بالنَّجاح إليها ، وإلاّ كنت عُرْضةً لحملات مواقع التواصل الاجتماعي وما إليها ، وكنت ممّن يضعون العصيّ في العجلات ، فهل بعد هذا من انتحار ؟!

إنّ تعليم اللغة العربية متدنٍّ ، وهذا التدني أو الانحدار ليس محكوماً بسبب واحد من الأسباب الكثيرة ، ومنها ((الاختيارات الثقافية واللغوية ، وبطبيعة اللغة العربية ، وبالوضعية اللغوية السائدة في الوطن العربي ، كما تتصل بالمعلم والمتعلِّم والمنهج وكل عناصر المنظومة التربوية)) [٤٢] .

٥ــ غياب السياسة اللغوية العربية : إنَّ ما آلت إليه حال اللغة العربية في ميادين مختلفةٍ ، تعليميَّاً ، ومعرفيَّاً ، وأدائياً ، إنَّما هو دليل تداعي الوعي بمفهوم الهوية اللغوية والأمن اللغوي ، والانحدار به إلى حدِّ التهافت والضياع ، ((فما المؤسَّسات التعليمية ومستوى الأداء الشائع فيها إلا صدى من أصداء الحال العامة التي آلت إليها اختيارات العمل السياسيَّة في موضوع اللغة)) [٤٣] ، وهذا يدفع بمن يدقق النظر في المعضلة اللغوية ليست في جوهرها قضية تربوية أو معرفية ، ويجعل من الخطأ أن يُزَج بها في التعليم ومضامينه ومناهجه ، أو في ضمن سياج الجامعات والمراكز البحثية)) [٤٤] .

وقد أوضح البحَّاثة الدكتور عبد السلام المسدي بعض تجلِّيات خيارات العرب تجاه السياسة اللغوية العربية ،من خلال مناقشته الوثيقة التي أصدرتها المنظمة العربية للعلوم (الألكسو)،والخاصّة بقضية (النهوض باللغة العربية) وما تتضمّنه من سياسة لغوية قومية للغة العربية، وهي تفصح عن ((تخلّي النظام الرسمي العربي عن مسؤوليته التاريخية تجاه اللغة ، وتنبئ بضعف الوعي بمسألة الأمن اللغوي))[٤٥]، فممّا نَصّتْ عليه هذه الوثيقة : ((وضع آلية للاتصال بالهيئات المالية القطرية والقومية من القطاع الحكومي والقطاع الخاص للتعريف بالمشروع

– أي مشروع النهوض باللغة العربية – ودراسة للجدوى منه مع الإلحاح على التلازم بين المسألة اللغوية والتنمية الشاملة والتركيز على الاقتصادي للسياسة اللغوية ، وما تتضمَّنه من فرص استثمار في قطاعات واعدة على قاعدة الانتقال من الاستثمار في الموارد التقليدية إلى تمويل اقتصاد المعرفة)) [٤٦] .

وقد أطال الدكتور المسدي الوقوف عند هذه الوثيقة وما تتضمنه من أفكار، وقلَّب الأمر على وجوهه ، وانتهى إلى أنَّ هذه الوثيقة تتسم بما يأتي :

١- تجعل المعضلة اللغوية رقماً من الأرقام في سلسلة المنجزات المادية .

٢- تجعل المسألة اللغوية ميداناً رحيباً للاستثمار المادي .

٣- تربط مسألة اللغة بعجلة الجدوى الاقتصادية ، ومن ثمَّ فهي تربط الأمن اللغوي العربي بالاقتصاد .

٤- تتناسى إحجام الاقتصاد العربي عن الاهتمام بالقيم الرمزية المتسامية في سماء الهوية الحضارية العربية .

٥- تناست الوثيقة عجز الأفراد عن القيام ما تقوم به الدول العربية مجتمعة أو الدولة القطرية .

٦- عوَّلت على القطاع الخاص والمنظَّمات غير الحكومية في قضية النهوض باللغة العربية ، وهذا يعني بالطبع ((إفلاتَ المسألةِ اللغوية من قبضة العمل العربي الرسمي وإخراجها من صلاحياته إلى دوائر ليس له سلطة عليها ، ولا وجه من حيث السياسة في أن يستجدي سخاءها ويوكل إليها أمر النهوض بالرمز الأعلى للهوية)) [٤٧] ، وأعني به اللغة العربية .

لقد جعلت الوثيقة من (القطاع الخاص) طرفاً تُنَاط به مسؤولية تنفيذ النهوض باللغة العربية ، ووضع الخطط الكفيلة بذلك . جاء في الوثيقة : ((فكثير من الجوانب الاقتصادية المرتبطة بالمسألة اللغوية تدخُّل الخواص ورؤوس الأموال لإحداث المؤسسات الصغرى والمتوسِّطة ، إلا أن ضعف الكفاءات التي توفِّرها مخرجات التعليم العالي مثلاً يحول دون إحداثها والاستفادة من الفرص الاستثمارية والتجارية المتاحة في السوق العربية والعالمية)) [٤٨] .

فإذا نيطتْ بالقطاع الخاص مسؤولية النهوض باللغة العربية ، وجعل من هذه القيمة الرمزية المتسامية للهوية الحضارية العربية ، فقد التمس للقطاع الخاص ورؤوس الأموال العُذْر بالعجز عن إحداث المؤسسات الصغرى والمتوسِّطة التي تتكفل بمسألة النهوض باللغة ، وهذا العجز عائد - وفق الوثيقة - من ضعف الكفاءات التي توفرها مخرجات التعليم العالي ، وهذا مسوّغ للإحجام عن القيام بهذه المُهمَّة، فهذا وجه من وجوه تداخل المفاهيم وتضاريس المقاصد في الوثيقة .

ولكن السؤال الحقيقي الذي طرحه الدكتور المسدي في نهاية الأمر : منذ متى كان اقتصاد السوق سبَّاقاً إلى السخاء في سبيل القيم الرمزية المتسامية نحو الفضاء الأرحب في سماء الهوية الحضارية ؟ [٤٩]

وعلى امتداد الوطن العربي كوِّنت لجانٌ بأسماء متعدِّدة الأقطار العربية ، هدفها (اللغة العربية) فمن ذلك : مجلس اللغة العربية ، وأكاديمية اللغة العربية ،

ولجنة التمكين للغة العربية ، ومؤسسة الفكر العربي والمجلس الأعلى للغة العربية ، ... وفي مقابل ذلك تعدَّدت الغايات التي كانت وراء إنشاء تلك الهيئات ، وكثرت التسميات ، بين مقولات إنقاذ اللغة العربية ، وحماية اللغة العربية ، والنهوض باللغة العربية ، وتطوير اللغة العربية ، والتمكين للغة العربية ، ... ولاشك في أنَّ لكل مقولةٍ دلالةً مختلفةً عن دلالة أختها ، فالتطوير غير الإنقاذ ، والإنقاذ غير النهوض ، والتمكين غير الإنقاذ ، وهكذا دواليك ، وهذا ما يؤكد لنا صحة ما أشار إليه عنوان فكرتنا التي لمَّا نغادرها بعد ، من غياب سياسة لغوية عربيّة موحَّدة ، ويؤكد من جهة ثانية ضبابية المفاهيم وتداخلها في أذهان منشئي هذه المؤسسات أو اللجان ، فإذا كانت تلك الهيئات حتَّى الساعة لم تتفق على مصطلح يعبِّر عن ((الإنترنت)) [٥٠] فمرّة يطلق عليها اسم ((الشبكة العنقودية)) وثانية ((الشبكة العنكبوتية)) وثالثة ((الشنكبوتية)) ورابعة ((الشابكة)) وخامسة ((الإنترنت)) فكيف ستكون الحال بالنسبة إلى موقف هذه الهيئات واللجان من المعضلة اللغوية ؟! جاء في الوثيقة التي حدَّدت ((مُهمات أكاديمية اللغة العربية)) : ((إنَّ أكاديميَّة اللغة العربية مشروع ينطلق من التّسليم بأنَّ أفضل المسالك وأنجحها في مواجهة التحديات الرّاهنة هو الإقدام بجرأة تامة على الأخذ بناصية العلم في معالجة قضايا اللغة ، ونفض الإشكالات العالقة بتداولها ، وتعلُّمها ، وترويجها ، وجعلها اللغة المعِّبرة عن حاجات العصر ورهاناته النابعة من الثورة المعرفية الكبرى التي تعيشها الإنسانية قاطبة في زمننا الرّاهن)) [٥١] .

وجعل ميثاق مؤسسة ((الفكر العربي)) اللغة ((من أعمدة صرحها بما أنه يبتغي الدفاع عن ركائز الهوية)) [٥٢] ، ولكنَّ هذه الوثيقة جنحتْ إلى المزاوجة ((بين سجلَّين : سجّل الصراحة المكسوَّة بالقفاز الحريري النّاعم بحيث تتوالى صيغ الوصايا مكبوتة الأنفاس تتمنَّى لو تتحرّر فارتدَتْ جِلْبات الأوامر الحاسمة ، وسجل الأدبيات التي تلاطف المشاعر الناعمة وتستثير الأحاسيس الخاملة)) [٥٣].

٦ - الإمبريالية اللغوية : وهي إمبريالية تأخذ منحىً تعليميّاً ، وأعني به ما تواجهه اللغة العربية من غُربة تجعل منها لغة منعزلة في زوايا بعيدة ، ذلك أن الشباب في أيامنا يعيش تحت وطأة ثلاثية لغوية لا ازدواجيَّة ، فقد أصبحت اللغة مزاحمة من اللغة المحكيَّة ومن اللغة الأجنبية ، وأصبح للشباب لغة ينطقون بها ولا يكتبونها ، ويكتبون لغة لا ينطقون بها ، وقد أشارت إحصائيات تقرير التنمية الثقافية إلى :

١ ــ ٥٣ ٪ من الشباب العربي يستخدم الإنكليزية أو غيرها في تواصله عبر مواقع التواصل الاجتماعي ، وما يسمَّى ((الدردشة)) .

٢ - يستخدم الشباب الحروف اللاتينية لمفاهيم تدرك باللغة العربية وهذا ((يفضي إلى جعل اللغة العربية هي الجدار الرخو في آخر حصون مقاومتنا الحضارية في زمن طوفان العولمة)) [٥٤].

ويضاف إلى ذلك سياسة الإقصاء للغة العربية في التعليم العالي ، فمهارات اللغة العربية لا يعبأ بها في

أقسام التخصص فكيف بالأقسام العلمية ، فلا تدرّس بها في كثير من جامعات الوطن العربي إلا المواد الهامشيّة ، مما ((يقلل من ممارستها بين المنتسبين إلى هذه الأقسام من أفراد المجتمع ، ويبعثهم في النهاية على نسيان الكثير مما تعلّموه من قواعدها وأصولها ومهاراتها ، ويدفعهم في نهاية الأمر إلى الانصراف عنها بدافع الإحساس بقلة فاعليتها ، وهذا ما يضعف ولاءهم لها ولثقافتها في كثير من الأحيان)) [٥٥] .

ويأتي انتشار الجامعات والمدارس الأجنبية عاملاً آخر في الاستلاب اللغوي ، ((وهي جامعات لها ارتباط منهجاً ورؤية بما لا صلة له بوضعنا ومجتمعنا وهذا يجعل الطلاب فيها لا يعيشون بعقول أخرى ، وقلوب أخرى ، وضمائر أخرى ، لا يكادون يحسون بالانتماء الحقيقي لأوطانهم ، ولا يعتزون بأمتهم وتاريخهم أو هويتهم)) [٥٦] .

وهذا الاستلاب يؤكد أنّ سعي الاستعمار إلى ((زحزحة)) اللغة لم يكن عملاً يأتي عفو الخاطر ، وإنّما كان عملاً مخططاً له ومرسوماً طريقه ، وعلى الرغم من كل مساعي الاستعمار إلى ذلك لم يحقق ما أراد ، ولكنَّ ((حرب اللغات مستمر في بلادنا العربية في ظل العولمة ، وما عجز الاستعمار عن تحقيقه في إبعاد العربية فإن ثمة من يرى أنَّ نفراً من أبناء العربية يعمل على تحقيقه عندما يستعمل اللغة الأجنبية في التعليم في جامعاتنا وفي المدارس الخاصة)) [٥٧] .

ويحضرني ههنا قول شارل ديغول : ((لقد صنعت لنا اللغة الفرنسية ما لم تصنعه الجيوش)) .

ولعلَّ هذا أحدُ أسلحةِ المحقِ الثقافيِّ والدمار اللغوي . ((فما لم يفعله التاريخ ماضياً قد يصنعه حاضراً فيأتي على أنفاس اللغة خنقاً وإهداراً)) [٥٨] .

ومعلوم بالبداهة أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية ليست بمنأىً عما تخضع له تلك الظواهر من انحدار ورقي ، وسيطرة وهزيمة ، وذلك بسقوط ((دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم مساكنهم ، أو بنقلهم عن ديارها واختلاطهم بغيرهم . فإنّما يقيِّد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوَّة دولتها ، ونشاط أهلها وفراغهم . وأمَّا من تلفتْ دولتهم ، وغلب عليهم عدوّهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمونٌ فيهم موت الخواطر . وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ، وأخبارهم ، وبيود علومهم . هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة)) [٥٩] .

وقد أكَّد هذه المقولة ابن خلدون إذ قال : ((اعلم أنَّ لغات أهل الأمصار إنَّما تكون بلسان الأمّة أو الجيل الغالبين عليها ، أو المختطِّين لها ... فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجِّح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ... وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً ... وربما بقيت اللغة العربية بمصر والشام والأندلس بالمغرب لبقاء الدين طلباً لها)) [٦٠] .

وهذا الاستلاب اللغوي أو الهزيمة اللغوية لها مؤيدون يناصرونها ، وذلك من خلال دعوتهم إلى الإغضاء أو التغاضي عن سيطرة لغة غريبة على اللغة الوطنية ، ويدعون إلى جعل هذه اللغة وهي هنا الإنكليزية حصراً لغة التعليم في كثير من أقطار الوطن العربي ، بدعوى أن ((لغة العلم في عصرنا

الحالي إنّما هي اللغة الإنجليزية ، إذ إنَّ معظم المراجع والمصادر العلمية هي باللغة الإنجليزية ، وإذا لم نعلم الطلبة بهذه اللغة فكأننا نمنعهم من الإطلاع على هذه المصادر والمراجع ، ونغلق عليهم نافذة العلم فضلاً عن أنَّ استعمال الإنجليزية في تدريس العلوم يـُعَدّ أسرع وسيلة للتمكن من هذه اللغة)) [٦١].

ويتذرَّع أصحاب هذه الدعوة بأمور منها [٦٢] :

١- أن الإنجليزية هي لغة الدولة الأقوى علمياً واقتصادياً .

٢- أن المجلات الإنجليزية هي الأكثر شيوعاً .

٣- أن التعليم العالي بالإنجليزية يمكن الطالب من الرجوع إلى المراجع والدوريات.

٤- أن التعليم بالإنجليزية يسِّهل على الطالب الذي تخرَّج بها في الجامعة حضر المؤتمرات الدولية والمشاركة فيها .

٥- أن التعليم بها يفتح أمام الطالب الأبواب على مصاريعها في مجالات مختلفة ويشترط إتقان اللغة الإنجليزية .

وهذه نتيجة من نتائج العولمة التي حرصت على دمج ((العلم اقتصادياً وثقافياً في ظل قطبية واحدة هي الأمركة ولغتها هي الإنجليزية)) [٦٣] .

وفي دراسة أجراها كلٌّ من د. خليل آل شاكر ، و د . حسين حيدر ، و د. ضو سويسي على عيّنة من الطلاب في إحدى الجامعات العربية فضَّلت التعلُّم بالإنجليزية لأسباب حصرت فيما يأتي ، ووفق النسب المحدّدة أمام كل سبب [٦٤] :

١- كثرة المصطلحات ٤٥،٣٪

٢- انقطاع الصلة مع الحضارة الإنسانية ٤٣,١٪

٣- عدم الاتفاق على المصطلح الطبي في الوطن العربي ٤٨٪

٤- قدرة اللغة الإنجليزية على استيعاب الجديد من المصطلحات ٥٦،٢٪

٥- العلم لا وطن له ولا لغة ٥٨،٤٪ .

وفي مقابل ذلك دعوة إلى التعليم باللغة العربية ، وهي تستند في ذلك إلى :

١- أنها تساعد الطلاب على الفهم والتمثّل والاستيعاب . فقد ((أدى عدم استيعاب الطلبة للمصطلحات والمفاهيم العلمية المقدّمة إليهم باللغات الأجنبية في جامعة الكويت إلى تسرُّب بعضهم من الكليات العلمية إلى كليات أخرى)) [٦٥].

٢- نجاح تجارب توطين اللغة العلمية في دول متعددة [٦٦] .

٣- تجربة جامعة دمشق في تعريب التعليم .

وهذا يؤكد لنا أنَّ ادّعاء الداعين إلى جعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم ادّعاء مُتَهاوٍ أمام التجارب الكثيرة في ميدان توطين لغة العلم ، ويؤكد من جانب أن العجز ليس في لغتنا ((وإنّما العاجز بعض بنيها سواء أكان العجز من النوع الثقافي المتمثِّل في ضعف إلمام أساتذة القاهرة باللغة العربية ومصطلحاتها ، أم كان من النوع النفسي إذا افترضنا فيهم القدرة على استعمال اللغة)) وهو كذلك دليل ((فقر في الإحساس بالانتماء القومي ، ذلك الإحساس الذي يدفع الجندي الأمين إلى اقتحام الأهوال ، وقد كان خليقاً

أن يدفع هؤلاء الأساتذة إلى صنع المحال)) [٦٧] .

إنَّ نظرة عَجْلى على قاموس حتِّي الطبي الجديد ، وما يضمّه من مصطلحات تردُّ على من يتَّهم عربيتنا بالفقر المصطلحي ، وتؤكِّد أيضاً أنَّ ((أفق لغتنا الشاسع، الذي لم يعجز عن استيعاب المنجزات الحضارية اليونانية والفارسية والسريانية والهندية على أيدي مترجمي دار الحكمة قديماً ، لن يعجز عن استيعاب المنجزات العلمية والحضارية ومسمّياتها في عصرنا الحاضِر . فمجال الاشتقاق فسيح ، ومجال النحت وارد ، وإمكانات التعريب أصبحت مأنوسة [٦٨])) .

وتمثِّل مسألة التعليم باللغة الإنجليزية وجهاً من أوجه محاربة اللغة القومية وإزاحتها ، ووجهاً من أوجه ((الإمبريالية اللغوية [٦٩])) ، أو حرب اللغات ذات الهدف المحدَّد هو نسف مقومات الذات من خلال تقويض اللغة . من خلال تقويض الثقافة العربية وصولاً إلى العربية الفصيحة الرأس الذي يراد اجتثاثه ، وهي جزءُ من المحاربة الحقيقية للغة العربية ، تدفع به قوى كبرى لا مصلحة لها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وحضارياً في بقاء هذه اللغة قوية متماسكة ، لأن في تماسكها عكساً لصورة تماسك الناطقين بها ، وتمثل من جهة أخرى سلاحاً رئيساً من أسلحة السيطرة على منطقة العالم العربي والإسلامي ذاتِ الموقع المهم والغني في الثروات. وهو من جهة ثالثة أحد عناصر التفكيك للناطقين بالعربية والمرتبطين أشدَّ ارتباط بتراث أمتهم على امتداد الزمن ، وهو اتصال ((تحاول كثير من القوى في العالم اليوم أن تلبس ثوب الإرهاب ، وأن تجعله يمثل الخطر الرئيس على حضارة العالم المعاصرة)) [٧٠] ، وهذا التواصل بقيم تراثية والإنشداد إليها هو ما دأب الآخرون على اتهام العرب به ، والنظر إليهم نظرة لا تحمل في تضاعيفها إلا كلَّ ازدراء ولكن لانعدم نظرات منصفة موضوعية في مقابل ذلك [٧١] .

الحلـــول

ولعلّ سائلاً يسأل ما السّبيل إلى الخروج من هذه المعضلة ؟

وفي الإجابة عن ذلك يمكن أن نقول : إنّ السبيل ليست واحدة ، وإنّ الطريقة ليست لاحبة ، ولكن يمكن تلمُّس جملة من الصُّوى ، والتهدي ببعض المعالم . ولعلّ ذلك محصور في مسربين ، أولهما الارتقاء بالتكلم ، وثانيهما الارتقاء باللغة . ونعني بالارتقاء أن ننتقل من مرحلة حسنة إلى أحسن . والارتقاء باللغة لا ينفك عن الانتقال بالمتكلم ، وذلك أنَّ تردِّي اللغة لا يعود إلى اللغة نفسها، ولا هو ناتج عن قصور فيها ، والأدلة على ذلك غير قليلةٍ فاللغة العربية لم تقف عن التطوُّر وقابليّته خلال الأزمنة الماضية ، بدءاً من الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، إذْ تطوّرت دلالات مفردات كثيرة بالانتقال من مرحلة لأخرى ودخلت مفردات أخرى ولبست لبوس الصيغة العربية ، وجاءت مقولة مؤصلي اللغة : ((ما تكلمّت به العرب فهو عربي)) لتؤكد قابلية اللغة لاستضافة مفردات جديدة وصهرها في بوتقة أبنيتها ويشهد العصر العباسي - زمن المأمون - على سعة أفق العربية يوم ترجمت بها علوم

شتَّى ، وهذا مظهر من مظاهر الثّراء الذي تتمتّع به لغتنا ، وفيه ذلك يقول : دي ساسي : ((تسهم قابلية الجذر الواحد لأنَّ تُشتقَّ منه صيغ كثيرة إلى حدٍّ كبير في ثراء اللغة ، ومع أنَّ ذلك يبدو أوَّل وهلةٍ عنصر تعقيدٍ في طريق دراسة اللغة إلاّ أنّه في الواقع عامل من شأنه أن يجعلها أكثر سهولةٍ . ذلك أنّ العلاقات القائمة بين دلالة الفعل الأصلي ودلالة الأفعال التي اشتُقتْ تكون عادة على نحو يساعد كل مَنْ يعرف دلالة الفعل الأصلي على معرفة دلالة الأفعال المشتَقَّة منه دون حاجة إلى قاموس)) [٧٢].

واللغة لا تقف عائقاً أمام استيعاب الجديد إذا استطاع متكلم اللغة استيعابها بل هي على النقيض من ذلك ستتكيف مع وضعها الجديد ، وهذا يعني من جهة اللغة ليست هي التي عليها استيعاب ما يجدّ في كل عصرٍ ، وإنما على الثقافة عامة أن تقوم بذلك ومن ثمّ أن يقوم الإنسان بذلك . وهذا يؤكد من جهة أخرى أن العجز - كما يقول إبراهيم اليازجي - ليس في اللغة نفسها وإنما العجز ((في أهلها أنفسهم ، لأن اللغة بأهلها تشبُّ بشبابهم وتهرم بهرمهم)) [٧٣] .

إنّ الارتقاء باللغة يمكن أن يكون من خلال إباحة السماع لمشرِّع اللغة وواضِعِها ، والمراد بذلك إيكال الأمر إلى العُرْفِ المجتمعي والمجامع اللغوية والعلماء ، ولكنّ ذلك لا يكون إلاّ على وفق قوانين العربية وأصولها ، وعن طريق إباحة لمستعمل اللغة أن يقيس على وفق قوانين التصريف والاشتقاق ، وهذا يعني أن يكون كلا الأمرين منضبطاً لا عشوائياً .

وأما الارتقاء بالتكلم فله ميدانان : أولهما الفرد ، وثانيها : المجتمع . ويكون ذلك من خلال مسائل لا مساومة فيها ، ولعل منها :

١- الإعداد الجيّد لمدرس اللغة العربية .

٢- الاعتداد باللغة هوية قومية

٣- عدُّ اللغة العربية مادة تعلم مركزية .

٤- تنقية البيئة اللغوية بدءاً بالأسرة ، فالمدرسة ، فوسائل الإعلام والإعلان .

٥- النظر إلى العربية نظرة واقعية بعيداً عن التخيل والتوّهم ، من خلال النظر إلى لغتنا نظرة تقرُّ بأنها لغة نامية كغيرها من اللغات ، وأنها ليست اللغة الفضلى بين لغات العالم ، لأن اللغة بأبنائها ، إذ من يتطور هو الإنسان لا اللغة نفسها ، ومن ثمّ هو الذي تقع على عاتقه عملية التطوير ، فالعجز ليس في اللغة وإنما العجز في أهلها العاجزين حضارياً لأنهم مستهلكون .

٦- التعريب .

٧- الاستعمال الوظيفي للغة لا الاقتصار على تدريسها من خلال قواعد جافة ، فليس بالنحو وحده تنهض اللغة .

٨- زيادة المحتوى الرقمي على الشابكة .

وجماع ذلك كله وضع سياسة لغوية ملزمة تحصّن المجتمع ، وتحصّن اللغة ، وتحصّن الفرد أمام تضخم خطر الكونية الناسفة لمقومات الهوية ، أعني بذلك اللغة ، لأنَّ سدنة التوظيف الأمُي ، ومهندسي الكونية الثقافية يخيفهم ما للعربية من وزن حضاري مستقبلي [٧٤] ، إذ اللغة العربية هي لغة قومية لما

يقارب ٣٧٠ مليوناً ، وهي ((مرجعية اعتبارية لحوالي مليار ونصف من المسلمين غير العرب)) وهذه اللغة شاهد حيٍّ على الأصول التي كانت نقطة استلهام الغرب ما وصل إليه من نهضة علميِّة . ولذلك ليس من المبالغة النظر إلى تربُّص الغرب للغتنا ، بل هو حقيقة لا تخفى على ذي عينين يقرأ التاريخ ويتملَّى الواقع ، فسلك دعاة العولمة في ذلك مسلك الحرب الباردة تجاه لغتنا وهي حرب تقوم على : تفتيت قوميات متماسكة ، وخلخلة الثقافات الراسخة ، وارباك اللغة ذات المتانة الرمزية بدفعها نحو التشّظي [٧٥] . ((ولاسيّما منذ انْ بدأت المعرفة اللغوية المتقدّمة على المستوى العالمي تكتشف مع التراث العربي من مخزون هائل يتصل بآليات الوصف اللغوي)) [٧٦] ، فهم مدركون أنّ اللغة العربية حاملة تراث وناقلة معرفة

الخاتمة

يظهر لنا مما تقدم أن اللغة من أهم مقومات الوجود الإنساني عامة ووجودنا العربي خاصة. وتبين لنا كذلك أن الواقع الذي وصفناه وصفاً موضوعياً بعيداً عن المبالغات والتباكي على رسومه، هو واقع لغوي مهين استمرأه العرب وتآلفوا معه، وكشفنا عن بعض مآسيه اللغوية، والتحديات التي تقف في طريق تخطيه، والصعوبات التي تحول دون تجاوزه.

ثم انتهينا إلى أن أسباب المعضلة اللغوية التي تتلبَّسنا لاتعود إلى اللغة نفسها أو قصور فيها، فقد كان لبنية لغتنا القدرة على استضافة بنى لغوية من لغات متعددة وصهرها في بوتقتها، وهذا دليل واضح على سعة أفق لغتنا، ولكن الأمر يحتاج إلى سبيلين مهمين لتغيير الواقع اللغوي المشين، وهما: الارتقاء بمتكلم اللغة، والارتقاء باللغة نفسها، ولا يحصل ذلك خبط عشواء، ولكن وفق آليات منضبطة.

الهوامش

١- معجم مقاييس اللغة :أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط .اتحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠٢م، (نمى) ، (٤٩٧/٥) .

٢- الهوية ولغة التعليم ،د. محمود السيِّد،م مجمع اللغة العربية، دمشق،ط١ ، ٢٠١٣م، ص١٥.

٣- المرجع السابق .

٤- ديوان عمر بن أبي ربيعة،شرحه محمد العناني ، مطبعة السعادة البهية،(١٣٣٠هـ)،ص٤٧٣.:١٦٣.

وللمزيد من الأمثلة انظر: من الصوت إلى الصمت: د. مهدي عرار، مجلة مجمع اللغة العربية،دمشق،مج٨٥،ج٣،ص٧٤٩وما بعدها.

٥- ابن جني، عثمان: الخصائص،حققه محمد علي النجار، دار الهدى ، بيروت، بلا تاريخ، ٣٣/١.

٦- منطق اللغة : نظرة عامة في التحليل اللغوي : د. ياسين خليل ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٢م .

٧- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني:١.

٨- عنف اللغة :جان جاك لوسركل، ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة،ط٢، ٢٠٠٦م،ص٢١٦.

٩- المرجع السابق: ٢١٨

١٠- عنف اللغة : ٢٢٠

١١- المرجع السابق: ٢٢٢

١٢- محاسن العربية، ديفيد جستس: : ٤٣

١٣- مقالة في النقد : غراهام هر ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى للفنون والآداب، ص ٥٠

١٤- نظرية الأدب : ١٨٧

١٥- اللغة العربية : أسئلة التطوّر الذاتي والمستقبل ، ياسين خليل : اللغة والوجود القومي ، ص ٣٥ ، سلسلة كتب المستقبل العربي ، رقم (٤٦) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٥م.

١٦- الهوية ولغة التعليم : ١٩

١٧- المفصَّل في علم العربية : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ ه) ، دار الجيل ، بيروت ص ٢

١٨- الهوية ولغة التعليم : ٢٢

١٩- المرجع السابق : ٢٢

٢٠- علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، ص٩٤ ، ٩٥ ، وأضواء على المشكلة اللغوية : ١١

٢١- نحو وعي لغوي:٢٢

٢٢- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق،٧٥

٢٣- المرجع السابق.

٢٤- الهوية العربية والأمن اللغوي، د. عبد السلام المسدي : ص ١١

٢٥- المرجع السابق .

٢٦- المرجع السابق .

٢٧- المرجع ، ص : ٧٤

٢٨- المرجع السابق: ١٢

٢٩- المرجع السابق،١٢.

٣٠- المرجع السابق،١٢.

٣١- تشويه اللغة بين الإعلام والإعلان : د . وليد السراقبي ، مجلة جامعة البعث ، المجلد ٣٣ ، ٢١٣ م .

٣٢- الإبَّالة : حزمة من الحطب . الضِّغث : العشب . والمراد بالمثل زاد بلية على أخرى .

٣٣- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٧٥

٣٤- مشكلات حياتنا اللغوية: أمين الخولي،دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥،ص٦١و٦٢.

٣٥- الهوية العربية والأمن اللغوي : ١٧

٣٦- نحو وعي لغوي ،مرجع سابق: ص ٢٠ و ٢١ .

٣٧- الهوية العربية والأمن اللغوي : ١٠٦

٣٨- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٨١

٣٩- فلسفة التأويل : هانس غادامار ، ترجمة محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٦ ، ص : ٩٠ و ٩١.

٤٠- علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة : ٩٤ و ٩٥

٤١- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٢١

٤٢- الهوية ولغة التعليم : ٥٠

٤٣- الهوية ولغة التعليم : ٥٠ ـ ٥٢

٤٤- العَبْرنة الشاملة والتحكّم بالتكنولوجيا المعاصرة في الكيان الإسرائيلي ، عثمان السعدي ، كلية التربية ، قسم أصول التربية ، ص ٦ [عن : الهوية ولغة التعليم،مرجع سابق : ٥٣] .

٤٥- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٢٠

٤٦- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٧٤

٤٧- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٧٤

٤٨- حركة الترجمة في المشرق الإسلامي : رشيد حميد حسن الجميلي ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨-٣١

٤٩- الهوية العربية والأمن اللغوي : ٩٦

٥٠- المرجع السابق : ٩١

٥١- المرجع السابق : ٩١

٥٢- المرجع السابق : ١٠٩ و ١١٠

٥٣- المرجع السابق : ١٠٩

٥٤- الهوية العربية والأمن اللغوي : ١٠٨

٥٥- المرجع السابق : ١٠٩

٥٦- الهوية العربية والأمن اللغوي : ١٠٩

٥٧- انظر هذه التسميات في : الهوية العربية والأمن الغوي : ١٧٦

٥٨- الهوية العربية والأمن اللغوي : ١٦٤

٥٩- المرجع السابق : ١٧٤

٦٠- المرجع السابق : ١٩١

٦١- المرجع السابق : ١٨٠

٦٢- الهوية لغة التعليم : ٣٤

٦٣- المرجع السابق : ٣٥

٦٤- المرجع السابق : ٣٨

٦٥- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق،: ١٥١

٦٦- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق، : ١٥١

٦٧- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة،ص ٥٤٦. .

٦٨- تعريب التعليم الجامعي : د. عبد المجيد نصر ، جامعة اليرموك ، مط . جامعة دمشق ، ١٩٨٢ ، ص٤ [نقلاً عن : الهوية ولغة التعليم/٤٠] .

٦٩- الهوية ولغة التعليم،مرجع سابق، : ٤٠ .

٧٠- المصدر السابق : ٤٠

٧١- آراء ومقترحات لتدريس الطب بالعربية ، مجلة التعريب ، ١٩٩٤٦٨٤ ، ص : ٢٩.

٧٢- الهوية ولغة التعليم، مرجع سابق، : ٤٣ . وانظر : ٤٤-٤٩ .

٧٣- الهوية ولغة التعليم،مرجع سابق، ص : ٥٠

٧٤- ديوجين مصباح الفكر ، عبد الصبور شاهين ، ٣٤٤ ، س ١٩٧٦م ص : ١٠

٧٥- قاموس حتّي الطبي ، يوسف حتى ، وأحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان ص١

٧٦- هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية :سكون مونتغمري ،ترجمة الدكتور فؤاد عبد المطلب،سلسلة عالم المعرفة، الكويت،العدد٤١٩،ص ٨٩

٧٧-أنقذوا اللغة من أيدي النحاة : ٩ .

٧٨- انظر في ذلك العربية من وجهة نظر الآخر : د. محمد فلفل ، أضواء على المشكلة اللغوية ، اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠١٣ ، ص : ٢٩ وما بعدها ، ومحاسن العربية : ٣٨ ، ٤٥

-الصُّوى: الأعلام من الحجارة،ومفردها صوَّة.

٧٩- محاسن العربية : ٣٨

٨٠- اللغة والعصر :إبراهيم اليازجي ،[عن اللغة العربية :أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة ، سلسلة كتب المستقبل العربية رقم(٤٩)،ص٢٠٦.

٨١- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق، : ٢٦٤ و ٢٦٥

٨٢- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق: ٢٧٦

٨٣- الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق: ٢٦٦

.

المصادر والمراجع

آراء ومقترحات لتدريس الطب بالعربية ، مجلة التعريب ، ١٩٩٤.

أضواء على المشكلة اللغوية ، د. محمد فلفل ، اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠١٣ .

حركة الترجمة في المشرق الإسلامي : رشيد حميد حسن الجميلي ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٨٢ .

الخصائص، ابن جني،حققه محمد علي النجار، دار الهدى ، بيروت، بلا تاريخ.

ديوان عمر بن أبي ربيعة،شرحه محمد العناني ، مطبعة السعادة البهية،(١٣٣٠هـ).

عنف اللغة: جان جاك لوسركل، ترجمة د. محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة،ط٢، ٢٠٠٦م.

فلسفة التأويل : هانس غادامار ، ترجمة محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٦ .

قاموس حتّي الطبي ، يوسف حتى ، وأحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان .

اللغة العربية : أسئلة التطوّر الذاتي والمستقبل ، ياسين خليل : اللغة والوجود القومي ، سلسلة كتب المستقبل العربي ، رقم (٤٦) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٥م.

مشكلات حياتنا اللغوية: أمين الخولي،دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥.

المصادر والمراجع معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط.ا تحاد الكتاب العرب،دمشق،٢٠٠٢م.

المفصَّل في علم العربية : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الجيل ، بيروت.

مقالة في النقد : غراهام هر ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى للفنون والآداب،دمشق.

منطق اللغة : نظرة عامة في التحليل اللغوي : د. ياسين خليل ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٢م .

هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية :سكون مونتغمري، ترجمة الدكتور فؤاد عبد المطلب،سلسلة عالم المعرفة، الكويت،العدد٤١٩.

الهوية العربية والأمن اللغوي، د. عبد السلام المسدي،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،ط١،بيروت،٢٠١٤م.

الهوية ولغة التعليم ،د. محمود السيِّد،ممجمع اللغة العربية، دمشق،ط١ ، ٢٠١٣م.

المجلات:

١- مجلة مجمع اللغة العربية،: من الصوت إلى الصمت: د.مهدي عرار، مج٨٥،ج٣.

٢- ديوجين مصباح الفكر ، عبد الصبور شاهين ، ٣٤٤ ، س ١٩٧٦م.

٣- مجلة جامعة البعث،حمص، سورية: تشويه اللغة بين الإعلام والإعلان : د . وليد السراقبي ، ، المجلد ٣٣ ، ٢٠١٣م. م .